«الحدودية» اليهودية

د. عبد الوهاب المسيري

«الحدودية» هو اصطلاح قمنا بصكه لوصف احدى السمات الاساسية للطوائف اليهودية في كثير من المناطق الجغرافية والعصور التاريخية . والحدودية لها بعدان، جغرافي واجتماعي . البعد الجغرافي هو وجود اعضاء الطوائف على حدود الدول، او في مناطق تقع بينها، أو على مفترقات الطرق (في الموانىء البحرية او المدن التجارية التي تكون بمثابة موانىء برية). اما البعد الاجتماعي، فيشير الى وضع اليهود الطبقي، أو الوظيفي، بين طبقات المجتمع الواحد، أو على هامشه. وغني عن البيان ان البعد الاول مقترن بالبعد الثاني، وان كان غير متوحّد به، اذ يمكن للحدودية الجغرافية أن توجد دون الحدودية الاجتماعية، والعكس، ايضاً، صحيح، وان كان من الواضح لدينا ان الواحدة تقود الى الاخرى، وأن انفصالهما هو مجرد تعبير عن الفجوة الزمنية time lag التي تسم كل الظواهر الانسانية.

وينبغي أن ننبه، ابتداء، الى أن هذه الصفة ليست صفة كامنة في «الطبيعة البشرية اليهودية»، أو لصيقة بها، كما قد يتخيل البعض، وانما هي صفة مكتسبة يمكن فهمها في اطار تاريخي. فهي، مثل أي ظاهرة زمنية، تعود الى أسباب اجتماعية لا تستعصي على التفسير. ويجب، أيضاً، أن نشير الى أن ثمة اقليات يهودية عديدة لم تتصف بصفة الحدودية هذه. فيهود بابل (العراق) كانوا، دائماً، جزءاً من مجتمعهم ؛ كما ان الاميركيين اليهود اصبحوا جزءاً عضوياً من مجتمعهم، لا يقفون على حدوده، وانما يتحركون داخله، وفي صميمه. ويمكن القول ان صفة الحدودية هذه تنطبق، بشكل عميق واساسي، على اعضاء الاقليات اليهودية في العالم الغربي، خاصة في شرق اوروبا قبل الثورة الصناعية. وحيث ان وضع هذه الاقليات هو الذي أفرز الصهيونية، وأن الصهيونية هيمنت، الى حد كبير، على كل يهود العالم، فان هذه الظاهرة تكتسب أهمية خاصة في الوقت الحاضر.

يلاحظ ان اول ذكر للعبرانيين كان على اساس انهم جماعات بدوية تنتقل من بلد الى آخر، فتبقى اما على حدوده الفعلية أو تدخل فيه للسقيا والاستقرار المؤقت، اي تبقى على حدوده من الناحية المجازية . وتدل الاشارات التي وردت في العهد القديم على ان العبرانيين كانوا يرابطون على حدود المدن (شأنهم شأن كثير من البدو الذين يحضرون للاتجار ولتبادل السلع)، أو على طرق التجارة التي توصل من مكان الى آخر. وحينما نزل العبرانيون الى مصر استوطنوا في جوش (محافظة الشرقية)، وهي متاخمة لجزيرة سيناء وحدود مصر. وبعد التسلل العبراني في أرض كنعان، استقروا في فلسطين، وهي بلد كان يقف على الحدود بين القوتين الاعظم آنذاك، مصر وبلاد الرافدين. وتاريخ مملكة داوود وسليمان هو تاريخ الانكماش المؤقت لهاتين القوتين، تماما مثلما نجد أن تاريخ الدويلتين اليهوديتين (مملكة يهودا ومملكة اسرائيل) هو تعبير عن الصراع بين هاتين القوتين حينما عادت